(٨)
الشحاتة عيب!*

أكثر من مرة كتبت أحذر من الديون الخارجية لأننا فى مصر بالذات لنا تجارب سيئة جدا مع الديون الخارجية منذ أيام الخديويين: سعيد وإسماعيل وتوفيق، فقد كانت تلك الديون من أسباب الاحتلال الأجنبى. وقد كان الخديو إسماعيل يستدين الملايين لينفق على نفسه بسخاء. كما كان ينشئ من الديون مشروعات عظيمة لمصر وبعض مؤرخينا المعاصرين يصفون الخديو إسماعيل لذلك بأنه رجل عظيم وأنا لى رأى آخر فى إسماعيل وأعماله ولكننى مهما كان لا يمكننى أن أصف إسماعيل بالعظيم ولكن كل مؤرخ منا حر فى الرأى الذى يراه وتلك الديون الماضية وما يتعلق بها مضت إلى غير رجعة..

ولولا أن رئيسنا اليوم هو حسنى مبارك لبان غضبى على الديون بلا حدود لأن مبارك بعقله وذكائه وهدوء شخصيته وبعد نظره وحبه لبلده مصر رفع مكانها فى العالم إلى مستوى يجعلها اليوم من القوى الدولية العالمية التى لا تعرضها الديون الخارجية للخطر ومع ذلك فإننى اليوم أقول كفاية ديون عالمية ولا يجوز لنا أن نمد أيدينا للديون لأنها فى حقيقة الأمر شحاتة والشحاتة عيب حتى لو قيل لنا إننا نستعين بهذه الديون فى إنشاء صناعات كبرى نستهلك منها ما نحن بحاجة إليه ونصدر الباقى. لأن هذا لايحدث إلانادرا ولولا أن حكام مصر اليوم على مستوى رفيع من الكياسة والوطنية والقوة العلمية لكان من المؤكد أن هذه الديون تؤذينا فى آخر الأمر..

وأنا أعرف أن الدنيا كلها تمر اليوم بظروف غير عادية ويكفى أن ننظر فى اضطرابات شرق أوربا ووسط آسيا لنعرف أننا اليوم فى مصر آمنون على أنفسنا. ولولا أن أوربا زرعت مصيبة إسرائيل فى قلب عالمنا العربى ولولا أن إسرائيل نفسها مشكلة للدنيا كلها لكان خوفى من هذه الشحاتة أقل مما هو اليوم لأنهم رفعوا أرباح الديون فى الدنيا إلى مستوى غير معقل. فإن

* نشرت هذه المقالة فى ٧ يونيو ١٩٩٢م.

متوسط أرباح الديون فى أمريكا والعالم الغربى ارتفع إلى ٢٠ بل إلى ٢٥ فى المائة وبعد موت الاقتصادى الإنجليزى المخيف روبرت مكسويل منتحرا فى الغالب انكشفت أسرار مخيفة عن البنوك والهيئات الاقتصادية العالمية وخاصة الإنجليزية وكل دول العالم ومنها مصر تعانى إلى اليوم من سوء وتصرفات ذلك الرجل، وكان إسرائيليا وتحاول علاج متاعبها لأن البنوك والهيئات الاقتصادية العالمية مصائب ينبغى الحذر منها والبعد عنها لأنه ثبت أن حكومات الدول الكبرى من أمريكا إلى غرب أوربا واليابان أضعف من أن تستطيع التدخل الفعلى فى أعمال تلك الديون والهيئات الاقتصادية العالمية بل ثبت لنا من مآسى عصر إسماعيل أن ممثلى حكومات إنجلترا وفرنسا كانوا خدعون الخديو ويوجهونه إلى الاستدانة من بنوك أوربية معينة لأن المشرفين على هذه البنوك كانوا يدفعون لدولهم أو لرجالها مبالغ ضخمة من أرباحهم من الديون المصرية، بل أن إنجلترا بالذات كانت تدبر مسائل ديون مصر لكى تتدخل فى شئونها واحتلالها فى نهاية الأمر وواضح من أعمال اللورد كرومر أول مندوب سام لإنجلترا فى مصر بعد الاحتلال أنه كان يعرف من أول يوم أتى فيه إلى مصر كل الأسرار المالية لمصر.

وكانت كل تصرفاته من أول يوم أيضا موجهة إلى تمكين يد بريطانيا من رقبة مصر بحجة علاج الاقتصاد المصرى المتعثر وإصلاح الإدارة المصرية. وكانت تركيا تساعد إنجلترا على التمكن من شئون مصر غير عالمة أنها هى نفسها ستقع فى يد إنجلترا وفرنسا ولولا مصطفى كمال لكانت تركيا ربما إلى يومنا هذا مستعمرة لإنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والأرمن لأن الأتراك قبل مصطفى كمال لم يكن لهم علم سليم بالمالية العالمية..

ونحن نعرف أن جورباتشوف صانع الانقلاب الروسى المعروف ذهب إلى الولايات المتحدة بحجة أنه مفلس وفى حاجة إلى معونة مالية ضخمة فإن راتبه الذى قرره له الروس بعد عزله يجعله من الفقراء. وقد عاد الرجل اليوم من أمريكا لبلاده وفى جيبه بضعة ملايين يقول إنه سيستخدمها فى النهوض بهيئة علمية خارجية أنشأها فى روسيا لخدمة العالم، ولكن الذى يهمنا أن نعرفه فى مصر أن إحدى المؤسسات الأمريكية التى دعته

للمحاضرة فيها كانت هيئة يهودية. وقد أعطته مائة ألف دولار عن محاضرة ألقاها وهذا واقع ولكننى لا أفهمه. فأى محاضرة تلك التى تستحق أن يدفع فيها مائة ألف دولار. والحقيقة هى أن لهذه الهيئات الأمريكية المنتشرة فى كل نواحى العالم أسرارا خطيرة وهدفها الرئيسى هو خدمة اليهود فهذا المبلغ الذى أعطى لجورباتشوف يرمى فى الحقيقة لخدمة اليهود وإسرائيل ونحن لا نلوم جورباتشوف على أخذ هذه المبالغ الضخمة ولكننا نخاطب أنفسنا ونقول حذار من الأموال الأجنبية حذار من الديون والشحاتة فكلها تخدم اليهود الذين يهددون بلادنا ويجتهدون فى سرقة الأراضى الفلسطينية وهم فى نفس الوقت الذى يدفعون فيه مائة ألف دولار لجورباتشوف يطلبون من أمريكا عشرة مليارات من الدولارات لكى يبنوا مساكن للمهاجرين اليهود إلى الأراضى الفلسطينية وأمريكا غاضبة عليهم اليوم لا حبا فى الفلسطينيين بل لأنهم لا يعجبهم أن يتصرف فيهم اليهود كما يشاءون، ولهذا كله ولأننى لا أفهم كيف أن أغنى ناس فى الدنيا وهم اليهود يتكرمون على الناس بهذا السخاء وهم فى نفس الوقت يثقلون على الولايات المتحدة فى طلب عشرة بلايين دولار منحة لهم لكى يبنوا مساكن لليهود فى أراضى عربية. وقد رفضت أمريكا الموافقة على ذلك لأنها أعلنت أكثر من مرة أنها لا توافق الإسرائيليين على القيام ببناء مساكن لليهود فى غير أراضيهم بل فى أراضى العرب الذين يحتلون أراضيهم منذ سنة١٩٦٧م ومن المعروف أن الأراضى المحتلة فى أى مكان لا يمكن أن يحرم منها أصحابها ولا يمكن أن تضم إلى أراضى الدولة المحتلة وهذا قانون دولى نحترمه الدنيا كلها ولكن إسرائيل التى قضت مئات السنين تشكو العالم كله لسوء معاملة الناس لليهود تريد اليوم أن تدوس القانون بقدميها وتطلب من أقوى دول العالم وهى الولايات المتحدة أن تعطيها مبلغا ضخما جدا عشرة آلاف مليون دولار لكى تستخدمها فى موضوع ترفضه الولايات المتحدة لأنه مخالفة للقانون الدولى، ولكن الإسرائيليين بعد أن تمكنوا من إنشاء وطن لهم فى الأراضى العربية يريدون اليوم أن يدوسوا الدنيا بأقدامهم والويل لمن يعترض وها نحن أولاً نرى اليوم أن إسحاق شامير يشتم الولايات

المتحدة ويعلن أنه لا يحترم رئيسها جورج بوش، لأن بوش يصر على احترام القانون الدولى ويحذر إسرائيل من البناء فى الأراضى العربية المحتلة..

ونحن مع الأسف الشديد جيران لإسرائيل، وهذه كارثة لأننا وعلى الرغم من أن بيننا وبين إسرائيل معاهدة صداقة نعرف تماما أن إسرائيل تنظر بطمع شديد إلى أراضينا، وتستعد لإعادة احتلال سيناء إذا استطاعت، ونحن نعرف ذلك ولهذا فإننا نجتهدفى حماية أراضينا فى سيناء من خطر اليهود.

ولهذا فأنا أقول: حذار من الديون الخارجية لأننى متأكد من أن أموال الدنيا كلها تمر بين أصابع اليهود، وهم يفكرون دائما فى استخدام الأموال العالمية للانتقام من الدنيا كلها، لأن الإسرائيليين لا ينسون القرون السوداء (بالنسبة لهم) التى كان الأوربيون فيها يعاملون اليهود معاملة الأعداء ولا يسمحون لهم قط بسكنى المدن الأوربية بل كانوا يضطرون إلى إنشاء مراكز لهم خارج المدن الأوربية ولم يكونوا يستطيعون الحياة كمواطنين محترمين إلا فى البلاد العربية.. ونحن فى مصر كنا نفتح أبوابنا لليهود ونكرمهم، ولكنهم بدلا من شكرنا كانوا يعتدون علينا ويسبوننا فيما بين بعضهم وبعض، ومهما نفعل اليوم فأننا لن نكسب مودتهم، وكلنا نعرف أن إنجلترا عندما كانت تمهد فى الخفاء لاحتلال مصر كان اليهود فى بلادنا يؤيدون الإنجليز ويمدون لهم الطريق لاحتلال بلادنا..

ولهذا فأنا أقول اليوم: حذار من الديون، لأن الدين قد يأتى من الولايات المتحدة أو فرنسا أو إنجلترا ولكن المال نفسه لابد أن يكون قد مر فى طريقه إلينا بالأيدى اليهودية، ولهذا فإن جيراننا فى إسرائيل يعرفون بالضبط كل مليم دخل أيدينا من الديون وفيم ستستخدمه، ومن المؤكد أنهم إذا استطاعوا حرماننا من أى نقود تأتينا من الخارج فإنهم قطعا لن يترددوا فى ذلك، وهم يعرفون أننا فى مصر ناس طيبون وأنهم ليسوا بطيبين والحذر منهم واجب، وهل تصدق أن ابن ميمون الفيلسوف الأندلسى اليهودى عندما ضاقت به الأندلس فى أيام الموحدين لم يجد بلدا يهاجر إليه ويعيش مطمئنا فيه إلا مصر، وقد أتى ودخل فى خدمة صلاح الدين طبيبا وجرى المال بين يديه، وبدلا من أن يشكرنا على ذلك نجده يكتب خطابات سرية إلى أصدقاء

يهود له فى الفيوم يسبنا ويشتم مصر، ونحن المصريين نعرف أن أحدا فى الدنيا لا يمكن أن يفلح. إذا هو شتم مصر، وابن ميمون الذى لم يعرف الخير إلا فى مصر عاش سنواته فى مصر تعيسا، ونحن لا نأسف عليه لأن بلادنا استقبلته بقلبها الأبيض فلم نجد فيه إلا قلبا أسود.

وأنا عشت حياتى كلها مع التاريخ، والذى أعرفه هو أن مصر عاملت الدنيا كلها بخير، وأنها عاملت الدنيا كلها أحسن معاملة، ولكنها لم تلق من الدنيا إلا كل شر، فنحن مثلا صنعنا محمد على.. ونحن الذين رشحناه لتعينه الدولة العثمانية واليا على مصر، وكان الذى يقود المصريين فى هذه العملية الزعيم المصرى عمر مكرم، وكان عمر مكرم يستطيع أن يرشح نفسه، والدولة العثمانية كانت ستقبل ترشيح المصريين له لأن السلطان العثمانى كان يحب المصريين ويؤيدهم لأنهم كانوا – كما هم دائما – شعبا أمينا صادقا، ولو كان الأتراك بعد أن هزموا طومان باى تركوا الأمر للمصريين لكان من المؤكد أن المصريين كانوا سيعاملون الدولة العثمانية أحسن من بكوات المماليك الذين عهدت إليهم الدولة العثمانية فى حكم مصر وتأييد الباشا التركى. ولو أن عمر مكرم تولى أمر بلاده لكانت النتيجة أحسن بكثير، لأن بكوات المماليك كانوا بقايا لصوص المماليك وعصرهم، وقد أساءوا حكم مصر، ومن المؤكد أن المصريين لم يكونوا قد انقلبوا على الدولة العثمانية وحاربوها كما فعل محمد على، ولكننا على أى حال لا ننكر أن محمد على كان رجلا عبقريا، وقد فهم الدنيا فهما سليما جدا وعرف كيف يعامل الأوربيين بذكاء ولكنه مع الأسف الشديد لم يفهم المصريين ولم يحسن معاملتهم، وقد وضع كل ثقته فى نفر من الأشرار من الأرمن والترك والجركس والأكراد والصقالبة وظن محمد على أن هؤلاء المتسكعين سيكونون مخلصين له وسيسيئون معاملة المصريين والمصرى الوحيد من رجال محمد على وهو على مبارك كان بعيدا جدا عن الجركس والأرمن والأتراك الذين كانوا يحيطون به ولا يقدرونه، وقد عرف الشعب المصرى كيف يمتص أولئك الرجال ويمصرهم لأنه شعب قوى جدا ومحب

لبلاده وعظيم الإحساس بقوميته. ولهذا فإننا لا نجد فى مصر تلك الأقليات الكردية والشركسية التى نجدها اليوم فى العراق والشام لأن كتلة المصريين هى التى امتصت هذه الجماعات من الأجانب الذين كانوا يسودون مصر دون أن يحبوا المصريين، والمصريون لم يحبوهم ولم يؤيدوهم فى سيادة مصر، بل رفضوهم جميعا، واضطروهم إلى التمصر.. وفى ثورة سنة ١٩١٩م التى تعتبر أساس مصر وكانت هناك معركة داخلية خطيرة لتمصير باشوات محمد على وأولاده. وقد انتصر المصريون فى النهاية وإليهم الفضل فى ظهور الشعب المصرى الكريم المعاصر الذى يمتاز بالوحدة القومية على بقية شعوب العروبة، وأنت لا تجد فى مصر أقليات خارجة على المجموع، حتى الأقباط نجدهم مصريين مخلصين يحاربون فى سبيل مصر ويعملون فى بنائها بإخلاص عظيم، وهذه الوحدة المصرية هى أساس قوة مصر اليوم، والرئيس مبارك الذى يقود هذا الشعب المصرى بنجاح يستفيد منه فائدة عظيمة لأنهم شعب قوى متميز، وهم يعرفون كيف يخلصون لرؤسائهم الأذكياء وقد أخلصوا لمحمد نجيب ولعبد الناصر ولأنور السادات ثم لمبارك الآن، ومن حسناته الكبرى أنه عرف كيف يمتزج برعاياه من المصريين ويسير بهم فى الطريق السليم، ونحن سعداء به وهو سعيد بنا، وبفضل قيادته السليمة أصبحت مصر اليوم من بلاد العالم الرئيسية، ورجال مصر اليوم يقودون منطقة الشرق الأوسط وعالم العرب، وهم ناجحون فى علاج مشاكلهم البيئية التى تخلفت عن صور المماليك والأتراك ولهذا فإننى أرى أننا لابد أن نوقف الديون ليزداد تقدمنا. وأولئك الذين نأخذ منهم الديون لا يخدموننا ولابد من الحذر منهم، لأنهم يتظاهرون بالكرم اليوم، ويسارعون بتقديم المال لمن يحتاج إليه من الدول الصغيرة، ولكنك لا تدرى ماذا يفعلون بتلك الدول الصغيرة المدينة إذا استطاعوا!..

وأكبر ما يخيفنى هو أنهم يرون تلك الدول الصغيرة فقيرة ومدينة، ويرون أن تلك الدول عاجزة عن سداد ديونها ولكنهم يعرضون عليها المزيد من الديون لأن هذه الديون تمكن لهم من سيادة الدول الصغيرة وبقية الدنيا.

ونحن المصريين الذين عانينا من ديون عصر الخديويين ونعرف اليوم أن حالة مصر لم تكن بالسوء الذى رسمه مستر ايفيلين بيرنج الذى أتت به إنجلترا من الهند وعهدت إليه بحكم مصر، وقد أظهر ايفيلين بيرنج مهارة عظيمة وأصبح اللورد كرومر فيما بعد، ولم يحب مصر أبدا لم يكن صادقا فى معاملة المصريين وعندما تقرأ كتبه تحس تماما أنه لم يكن مع المصريين أو أنه كان دائما فى خدمة إنجلترا وتمكينها من مصر، وعندما تحداه مصطفى كامل ومحمد فريد اجتهد فى الإساءة إليهما كما أساء إلى كل المصريين، وقد كان مصطفى كامل عظيما جدا عندما استخدم حادثة دنشواى لإطلاع الدنيا كلها على سوء تصرف اللورد كرومر وبقية الإنجليز وعندما نزل اللورد كرومر عن حكم مصر وعاد إلى إنجلترا كان حديثه عن مصطفى كامل ورجاله سيئا جدا لأن مصطفى كامل عرف كيف يثبت للدنيا كلها أن ديون مصر لم تكن بالسوء الذى صورها به الإنجليز وأن بريطانيا ظلمت مصر ظلما بشعا عندما غزتها فى سبتمبر ١٨٨٢م بحجة الرغبة فى إصلاح أحوالها وليس من الضرورى على أى حال أن تغزو بلدا وتضع يدك على كل أرضه لكى تصلح أحواله ولكن منظر الديون كان بشعا وكان المسئول عن هزيمة مصر هو الخديو توفيق لأنه كان رجلا ضعيفا وخائنا لمصر التى كان ينبغى عليه حمايتها من أى عدوان خارجى، ولكن هذا هو الذى كان وإنجلترا استغلت ديون مصر أسوأ استغلال، والمصريون لم يحبوا إنجلترا أبدا حتى أخرجوهم من مصر فى سنة ١٩٥٤م، وقد أخرجت حربنا مع الإنجليز أبطالا مثل اللواء محمد عبيد الذى مات شهيدا على المدفع فى موقعة القصاصين ولولا الديون لما كان هذا الغزو البريطانى ولكانت لتاريخ مصر الحديث صورة أخرى..

ذلك لأن الديون فى ذاتها مخيفة، ومهما كانت نية المدين طيبة فإن الدائن دائما فى حالة خوف على أمواله، ونحن نعرف أن الدول الغنية فى عصرنا هذا تشكو من فقر المدينين وعجزهم عن السداد، ولكن نفس هذه الدول الغنية تلح دائما على الدول الفقيرة فى أن تستدين، لأن الديون

وسيلة لاستغلال الأموال، والأموال كثيرة جدا ومكدسة فى بنوك غرب أوربا وإنجلترا والولايات المتحدة، تسليف الأموال للدول الفقيرة وسيلة طيبة جدا فى استغلال الأموال، وقد رأينا أنهم الآن لا يمانعون فى التنازل عن نسب من الديون لأنهم فى الحقيقة لا يكسبونها حلالا، ومعظم الديون لا تقل نسب أرباحها عن ٢٠ أو ٢٥ فى المائة أى أنها تسترد أجزاء كبيرة من ديونها ويظل المال قائما كما هو، واليهود الذين يجرون اليوم لكى يحصلوا من أمريكا على منحة قدرها عشرة بلايين يقولون إنهم سيستخدمونها فى بناء بيوت للمهاجرين اليهود لا يستحون فى نفس الوقت من أقراض المساكين فى الدنيا كلها بأرباح لا تصدق، وتبلغ بهم الوقاحة أن يغضبوا على الرئيس بوش بل هم يشتمونه لأنه لا يوافق على أن يبنى اليهود مساكن لمهاجريهم على أراضى الفلسطينيين المساكين. وهم لا يحبون أحدا فى الدنيا ولكنهم يطالبون الدنيا كلها بأن تحبهم وتؤيدهم..

والسيدة حنان ميخائيل عشراوى التى أدهشت الدنيا كلها بذكائها ووطنيتها، وبلاغتها ولكن الإسرائيليين لا يحبونها لأنها تجتهد دائما فى أن تظهر مواطنيها الفلسطينيين فى الصورة الجميلة التى يستحقونها ولهذا فهى لا تحصل من أولئك الإسرائيليين على كلمة خير مع أن الدنيا كلها تعجب بها حتى أن الناس فى الولايات المتحدة يتزاحمون على مصافحتها والاعراب لها عن إعجابهم بها، ولكن أصحابنا فى إسرائيل لا يحبونها لمجرد أنها فلسطينية، بل هم فى إسرائيل قد حكموا ظلما على الفلسطينيين بالموت لكى يسرقوا أرضهم بعد ذلك وهذه السيدة برغم ذلك كله تتمسك بحقوق شعبها الفلسطينى دون أن تقول كلمة عنيفة أو قاسية فى حث أولئك الإسرائيليين لأنها سيدة متحضرة حقا: إنها اليوم فى الخامسة والأربعين من عمرها، وقد درست فى فلسطين وفى الجامعة الأمريكية فى بيروت وأتقنت الكلام البليغ بالإنجليزية، وهى من رام الله، وقد احتل اليهود بلدها بينما كانت تدرس فى الجامعة الأمريكية وقد

كانت أسرتها من خيرة الأسر الفلسطينية، فقررت من ذلك الحين أن تستعيد بلدها وأن تساهم إسهاما صادقا فى تحرير ذلك الوطن العربى العظيم، وإلى جانب عواطفها الكريمة فقد عرفت أهمية اللغة فى الصراع السياسى عندما قرأت مذكرات نهرو. لقد ظلت تدرس الأدب الإنجليزى فى جامعة بيرزيت فى فلسطين سبعة عشر عاما ولكنها عندما أتيحت لها فرصة الدفاع عن وطنها أسرعت بكل إخلاص، إنها المتحدثة الرسمية باسم الوطن الفلسطينى، ولكنها فى الحقيقة أذكى وأقدر أعضاء هذا الوفد الفلسطينى، وهى اليوم موضع إعجاب الناس جميعا فى أمريكا لأنها تعرف كيف تغزو القلوب ببلاغتها فى اللغة الإنجليزية التى تعدل بلاغتها فى العربية، وقد حكى وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر كيف أرغمته هذه السيدة على الإعجاب بها بعد أن تحدثت إليه فى لقاء طويل، وفى أبريل سنة ١٩٨٨م كان لها لقاء كبير فى برنامج مشهور فى أمريكا يسمى (خط الليل) غزت فيه جميع القلوب، وأصبحت فعلا أشهر وأكبر شخصيات الوفد الفلسطينى فى محادثات السلام، وقد اعترف بذلك فيصل الحسينى كبير الوفد الفلسطينى فى المحادثات الثنائية، وإذا وفق الفلسطينيون فى الكسب فى تلك المحادثات فسيكون الفضل لحنان عشراوى..

وأعود فى ختام هذا المقال فأقول: حذار من الديون، فإننا نستطيع أن نعمل كل ما نعمله اليوم دون ديون، نستطيع أن نصدر ما نستطيع تصديره من أى شىء نصنعه ونستخدم الدولارات التى نحصل عليها فى شراء أى شىء نحتاج إليه دون مبالغة، شيئا فشيئا سنجد أننا فعلا انتقلنا من الصناعات الصغيرة مثل الحلوى، والبسكويت وبعض الدولارات الصغيرة إلى الصناعات الكبيرة كما فعلت تايوان، وتايوان من الممكن أن تكون مدرسة كبيرة لنا لأن أهلها ساروا فى الطريق السليم واعتمدوا على معاونات أمريكية صغيرة فى إنشاء صناعات كبيرة مثل السيارات أو قطع الغيار، حقا إن الكثير من صناعات تايوان غير متقنة اتقانا تاما، ولكنها تعتبر اليوم من بلاد العالم الصناعية، مثلها فى ذلك مثل كوريا الجنوبية..